وجيه كوثراني:

«التاريخ ليس درساً»

أن تعرف نقولا زيادة طالباً او صديقاً او نديماً او مسافراً او زائراً معايداً او سائلاً استشارة علمية او نصيحة، او كل هذا معاً، او شيئاً من كل هذا، يعني انك امام انسان ذي فرادة تكاد تكون نادرة الوجود وكلية الحضور معاً...

ذاكرة حية مدهشة بيومياتها وتفاصيلها على امتداد قرن عربي طويل، يعج بالأحداث الكبرى، بدءاً من عشرينيات التغلغل الصهيوني في فلسطين حيث ولد ونشأ، وحتى العدوان الوحشي الأخير على لبنان حيث درّس وكتب وبحث وعاش ونوفي...

بين النشأة والوفاة حمل نقولا زيادة ذاكرة كانت تعمل دون كلل ودون نسيان، ودون تشويت لأي تفصيل في الحياة اليومية، تسجل الأرقام والأيام والسنوات والأسماء والوجوه وتستحضرها في أية لحظة من لحظات المجالس والكتابة، صوراً ومشاهد آسرة للمستمع وللقارئ.

على ان الذاكرة التاريخية الفردية، التي كان يحلو لنقولا زيادة ان يستحضرها سرداً او رواية وبداعي «المؤانسة» لقرائه او مستمعيه ومجالسيه، كانت تتقاطع مع جهد واسع وكثيف ودائم في البحث التاريخي قراءة وترجمة وتأليفاً، فكان مؤرخاً موسوعياً لأزمنة وأمكنة متعددة ومتنوعة بقدر ما كان صاحب ذاكرة حية غطت قرناً عربياً كاملاً من الأحداث والوقائع.

ومع ان العلاقة بين الذاكرة والتاريخ تبقى علاقة ملتبسة، ظل عقل نقولا زيادة متيقظاً وواعياً ومدركاً الفرق بين ذاكرة تميل نحو «الذاتي» وبين تأريخ يميل الى «الحيادية»، ولا اقول الموضوعية. فهذه الأخيرة اضحت تبريراً «للذاتية» في الخطاب التاريخي، اي حجاباً وتمويهاً.

منذ انتقل نقولا زيادة من مرحلة وطأة التاريخ القومي العربي، حيث عاش تأثيرات تلك المرحلة في اجواء الجامعة الاميركية في بيروت في الخمسينيات من القرن العشرين، الى مرحلة التأريخ للوقائع بشيء من «الحيادية» في مباحثه المتنوعة في التاريخ القديم والتاريخ الإسلامي والتاريخ اللبناني، تكوّنت لديه فكرة عن فلسفة التاريخ أخيراً، وهي أن لا فلسفة للتاريخ، ولا عبرة ولا درساً له...

هذا ما وصل إليه أخيراً، وما حدثني به وما كتبه في يومياته (أيامي)، البشر لا يتعلمون من التاريخ، وإلا فما معنى تكرار الحروب وتكرار الأخطاء بشكل دائم؟!

على انه قبل هذا، ومنذ اكثر من اربعين عاماً، اذكر انني استمعتُ لأول مرة الى نقولا زيادة محاضراً في كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية (حيث كنت طالباً) في موضوعة «التحدي والإستجابة». كان نقولا زيادة يحاول تفسير ظاهرة النهضة العربية الحديثة على ضوء نظرية ارنولد توينبي في التحدي والإستجابة.

كان هذا حافزاً آنذاك لطالب مثلي يرغب في قراءة تاريخه وفهمه والتخصص به، ولكنه كان ايضا حافزاً لي ولجيلي للانخراط أكثر فأكثر في فلسفات التاريخ وعبره. ولكن كان هذا في زمن امّحى فيه الحد الفاصل بين الايديولوجيا والمعرفة...

فهل نصل اليوم الى النتيجة التي وصل إليها استاذنا نقولا زيادة بعد كل هذا العمر الطويل والذاكرة الحية الممتدة، ان لا دروس ولا عبرة من التاريخ، «لأن البشر لا تعتبر»!

ترى هل كان يقول هذا وهو يودع مآسي الحرب على لبنان، الحرب التي اطلقها «وهمان»: وهم «الأمة» من جهة ووهم الشرق الأوسط الجديد من جهة اخرى.